

قراءة فى كتاب العولمة والواقع الجديد

قراءة: أ. وليد عبد الماجد كساب (*)

منذ أن دعت الولايات المتحدة إلى كتابها - أو العولمة كما أطلقت عليه - وارتضته نظاما عالميا جديدا والعالم يعيش حالة من التخبط والفوضى.. وبدأت العولمة فى ثوب قشيب يحيط بها الغموض تارة.. وتبدو نواياها السيئة تارة أخرى.. وبقليل من التأمل نرى أن العالم على اختلاف أيدلوجياته ومشاربه قد تباينت نظراته للعولمة ما بين مؤيد لها يلتمس فيها طوق النجاة للبشرية ، وبين ناقم عليها يرى فيها الداء العضال ، بينما يقف التيار الوسط ليرمق العولمة بنظرة تجمع بين التفاؤل والحذر.

والكتاب الذى بين أيدينا يعرض لرؤية محاضير محمد للعولمة من خلال مجموعة أحاديث وكتابات، وهى بلا شك تمثل أهمية كبيرة لأنها صدرت من مفكر سياسى واقتصادى مرموق، استطاع أن ينهض ببلاده من مستنقع التخلف والتأخر إلى مصاف الدول المتقدمة تنافسها وتحداها.

ويقع الكتاب الصادر عن دار بلانك PELANDUK بماليزيا (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م) فى (٢٥٠) صفحة من القطع المتوسط ، ويضم الكتاب - الذى هو فى الأصل مجموعة من الكتابات والأحاديث التى ألقاها السيد محاضير فى مناسبات - فى مجمله عشرين موضوعا مختلفا كلها تدور حول العولمة.

الموقف من العولمة

يرى محاضير محمد أن قضية العولمة إن كانت قد فرضت نفسها بقوة فى هذا الوقت إلا أن ذلك لا يعنى أن نقبلها جميعاً خائفين، بل يجب أن نتأكد أولاً أنها

(*) الباحث برابطة الجامعات الإسلامية، وعضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية.

ستكون لصالحنا فردياً وجماعياً قبل أن نقبلها، كما يجب علينا أن نستخدم خبراتنا في ابتكار فكرة العولة وتطويرها لكي نخفض السلبيات التي تفرزها ونساعد على تحقيق الخير الذي تعد به العولة.

وكما يحدث لأي نظام يخترعه إنسان فإن الفائدة تأتي فقط إذا فهم النظام فهماً صحيحاً وأدير إدارة راشدة، لأن دواعي الفشل في المجتمعات الإنسانية موجودة دائماً، وهذه دائماً تخل بالنظام بغية جنى عوائد عالية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.

ويضرب السيد محاضير مثلاً للظلم الفادح للعولة في أرجاء العالم حيث يقول: إن سطح الملعب مصطلح اخترعه الأغنياء للتدليل على المنافسة المنصفة، ولكن استواء الملعب ليس كافياً وحده لحصول العدالة والإنصاف، بل يجب على اللاعبين أنفسهم أن يكونوا على قدم المساواة والقدرة، فالمعاقون لا يمكنهم منازل الأصحاء، كما أن ملاكم الوزن الثقيل لن يحرض على مواجهة ملاكم وزن الريشة مهما كانت قدراته الجسمية.

إذن فالعولة كما يراها محاضير محمد هي مفهوم اخترعه الإنسان ومن ثم يفقد إلى الكمال الإلهي . فكما إنه بإمكانها أن تجلب كثيراً من الخبرات، فإنها قد تكون لها بعض السلبيات التي تأتي فيما بعد بنتائج مأسوية للغاية.

الكفر بالعولة

وفي تحد واضح وبشجاعة معهودة يعلن محاضير محمد كفرة الواضح بالعولة التي أطلق عليها مصطلح " الدين الجديد" فيقول إن الحقائق المقدسة للدين الاقتصادي الجديد، والذي يعرف باسم العولة أو آلية السوق أو الليبرالية الجديدة تبدو بسيطة جداً وفي غاية الوضوح... والعقوبة التي تنتظر قائد أية دولة من الدول النامية لا يسبح بحمد هذه العولة وحقائقها المقدسة صباح مساء - معروفة جداً.. لكن يجب على أن أعترف لأولئك الذين يجرح مشاعرهم تلك الحقيقة المرة وهي أنني لست من المؤمنين بهذا الدين الجديد.

آسيا والتضرر من العوالة

يتحدث المؤلف فى كتابه عن العوالة وتأثيراتها على آسيا التى يتمنى إليها- وينتقد الدول الغنية المتوحشة التى كانت سبباً فى الأزمة الاقتصادية التى مرت بها دول شرق آسيا نظراً للتدفق الحر لرأس المال الأجنبى خارجاً، وبدأت الأزمة بالتلاعب فى قيمة عملات هذه الدول، وأدى انخفاض قيمة العملات إلى انخفاض الاستثمارات الأجنبية ومن ثم إلى انسحاب رأس المال الأجنبى تفادياً لخسارات أكبر وانهيار السوق والعجز عن سداد الديون، وبالجمللة أدت الأزمة إلى فشل النظام المصرفى.

الإسلام والعوالة

وتحت عنوان " الإسلام والعوالة " يتحدث محاضير محمد عن مستقبل الدول الإسلامية فى ظل العوالة حيث يرى أن المسلمين يواجهون تحدياً كبيراً يتمثل فى الصورة الحالية والمتوحشة للعوالة التى تهدد عقيدتهم، بل مع كل تلك الأخطار لا يجب اللجوء إلى أعمال عنف فردية تسبب حرجاً شديداً للإسلام وتعطى انطباعات سلبية عن هذا الدين الذى يدعو إلى التسامح والتراحم وقبول الآخر والانفتاح الذى لا يخل بالثوابت والقيم الإسلامية، وعلى المسلمين أن يخططوا من أجل تنمية أمتنا حتى نكون أقوياء بتكنولوجيا المعلومات وتحديات عصرها.

ويلقى محاضير محمد باللائمة على هؤلاء المتواكلين الذين يمثلون عبئاً كبيراً على دينهم، يقول " إن الله لا يساعد الذين لا يساعدون أنفسهم أو بالآخرى الذين لا يعرفون من معانى التوكل إلا مقولة اعقلها وتوكل .. نحن فى حاجة لمساعدة أنفسنا، وفى حاجة إلى أن نعقل جمالنا .. نعم يمكننا أن نستشهد بالقرآن والحديث، وأن نتجادل حول المعنى، ولكن مهما كان نوع الجدل فإنه يجب علينا أن نعمل لإضعاف تحدى العالم المتعولم، ويمكن أيضاً أن نسودهم، ونستعيد العصر الذهبى للإسلام الذى شهد سيادة المسلمين وريادتهم للعالم، ليس فى مجال واحد فحسب؛ بل فى مجالات شتى.

ويقرر الكاتب حقيقة مهمة هي أن العالم الإسلامي لا يمكن أن يعيش بمعزل عن العالم لأننا نعيش في عصر العولمة في عالم بلا حدود، وهل يمكن حماية كل شيء في عالم بلا حدود، إن طائرات التجسس والأقمار الصناعية تنظر إلينا من عل، وهي قادرة على اختراق كل شيء، ورؤية كل شيء نقوم به، فلم تعد هناك خصوصية - والمسلمون كما نعلم جميعاً أمة في غاية الخصوصية - لقد كنا قادرين على عزل أنفسنا ومحاولة ممارسة شعائرتنا الدينية وعاداتنا وقيمنا الأخلاقية بمعزل عن تأثيرات الآخرين، ولكن الوضع اليوم اختلف تماماً.

ويهيب محاضر محمد بالدول الإسلامية وحكوماتها أن تتأكد من أن العولمة لن تجعل منهم كيانا هامشياً كما فعلت الثورة الصناعية والعصر الصناعي، يقول " وهو الأمر الذي لن نقوى على احتماله هذه المرة، وإذا فقدنا الفرصة للمرة الثانية في أن نضبط خطواتنا وإيقاعنا مع التغيير الذي يحدث الآن، ذلك التغيير الجذري والسريع والمتطور في مجال التكنولوجيا والعلوم والتغيرات التي يحدثها الإدراك العالم للأشياء والأفكار والمفاهيم الجديدة للإنسانية والعلاقات الدولية، إذا فاتنا اللحاق بكل هذا وفشلنا في الإمساك بعلوم العصر فلن نكون كيانا مهماً فحسب؛ بل نكون كيانا قد هيمنت عليه قوى أخرى بشكل كبير.

كما يتعين على المسلمين أن يحاولوا فهم هذه العولمة بشكل أو بآخر فهماً لا ننشد معه حماية أنفسنا من أخطارنا، ولكن أن نعرف كيف نستفيد منها حتى نتوازي مع الدول المتطورة في مجال تكنولوجيا المعلومات والكفاءة الصناعية.

ثم يطرح سؤالاً: ماذا نجد وراء العولمة والمروجين لها؟ ويجب على ذلك بقوله " ظلم شديد للضعفاء أو الدول الفقيرة من خلال تسلط الرأسمالية وهيمنتها أو ثمة نظاماً ديمقراطياً يضم مصادر الطاقة الطبيعية إليه، جنباً إلى جنب مع الإبداع الإنساني لخلق أعظم حضارة في العالم".

كيف نواجه العولمة؟

وفى محاولة من السيد محاضير محمد لوصف علاج ناجع لسلبات العولمة، يرى أنه يجب التخطيط للعولمة بدقة وعناية. وأن يشمل التخطيط كل فرد فى أى جزء من أجزاء المعمورة. كما يجب أن تكون العولمة لخير الناس كل الناس، وعليها أن تبرهن على ذلك عملياً. ويجب أن تطبق العولمة وتنفذ ببطء وروية، مع إعطاء جهد أكبر على الأقل للأطراف النامية فى العالم. ولابد من إعادة مبادئ السوق وأعرافه، فالحصول على الأرباح لا يعتبر خطيئة، إنما أرباح الأغنياء والأذكياء على حساب مجهود الفقراء، يجب أن يقابل بالعقاب الرادع من قبل المجتمع الدولى.

فضلا عن أنه لابد أن تكون هناك حرية حركة لرأس المال تصحبها حرية فى حركة العمال، ولكن ليس بقرار من الدول المعنية بذلك فحسب. كما يجب أن تزداد إنتاجية العالم وتقل التفاوتات والتباينات بأشكالها المتعددة.

لا أعتقد أننا قادرون على عمل كل هذا فى حياتنا التى نعيشها الآن، ولو كانت أعمارنا مضاعفة. ولكن علينا أن نبدأ. وتكون بدايتنا بالتفكير فيها. التفكير فى العولمة كاقتراس للثروة العالمية فى مادتها الخام، وفى رأس المال، وفى التكنولوجيا، قسمة عادلة ومتكافئة.. هذه هى العولمة فى خدمة الإنسان. حيث إن العولمة يجب أن تخدمنا وليس العكس.

كيف نستفيد من العولمة؟

ويرى محاضير محمد أن التحدى الذى يواجه الدول الفقيرة ومن بينها دول آسيا لا يكمن فى كيفية التعامل مع العولمة، بل فى تفعيل إمكانات العولمة للإفادة منها، والتحدى فى تأثير الفكر على العولمة، وإعادة تشكيلها، وتقليل احتمالات الانحراف فى طرق التعامل التى تدمر الآليات الاقتصادية ومن ثم الدول.

وحسب رؤية محاضير للعولمة فليس هناك شئ مقدس لا يمكن تغييره فى مفهوم العولمة الحالية بل يمكن تعديل العولمة جذريا إذا اقتضت الضرورة ذلك، مثل تقليل

المخاطر التي قد تفرزها تجاه الذين يقبلونها ويمارسونها، والتجارة الحرة ليست مرادفاً للعولمة كما يظن البعض بشكل خاطئ.

وبعد.. فقد كانت تلك الإطالة السريعة على مفهوم العولمة وإرهاصاتنا عند السيد محاضير محمد من خلال كتابه الرائع " العولمة والواقع الجديد" الذي غاص من خلاله في خبايا العولمة ومكنوناتها فكتب عنها بأسلوب لا تنقصه الصراحة.. ولا تعوزه الموضوعية.. وقد كان لعمله كرئيس للوزراء في ماليزيا لفترة طويلة دور كبير في فهمه للعولمة كأحد صناعات القرار في العالم لفترة من الفترات ، ولأنه قد لمس تجلياتها بشكل مباشر خاصة في مجالي السياسة والاقتصاد ، فقد جاء الكتاب ثريا بالأفكار والتحليلات النافعة فضلاً عن الإرشادات العلاجية الناجعة.
